

(التعريف والنقد)

تعريف بكتاب:

«في عصور حضارتنا وتوصيفها»

عماد يوسف قدسي

د. مروان المحاسني

إن الحاجة إلى إعادة النظر في المصطلحات المناسبة لكل فرع من فروع العلم الحديثة حاجة ملحة، نظرًا لتشعب العلوم وتعدد مجالات تطبيقها. وإن هذا التشعب ينتج سيلاً من المصطلحات تضاف إلى ما تطرحه الحداثة من مصطلحات جديدة لا بد من إيجاد المقابلات العربية لها، والإسراع إلى تثبيت هذه المقابلات قبل أن تسبقنا الألسنة إلى استعمال الكلمات الأجنبية كما هي، أو بعد تحويرها تحويرًا بسيطاً يكسبها رنة مع بقائها على عجمتها. وقد أهدي إلى مجمع اللغة العربية كتاب ألفه الأستاذ عماد يوسف قدسي رحمه الله، وهو يتطرق إلى المصطلحات المستعملة في مضمار التعريف بالمرحلة المتتابعة للحضارة في عالمنا وفي بلاد الشام بخاصة. وهو كتاب يشهد لصاحبه بثقافة واسعة متعددة الوجوه في معالجة موضوعات هامة تتصل بتاريخ الحضارة. فهو يتخذ موقفًا نقدياً من المصطلحات المتعارفة في توصيف مراحل الحضارة العالمية، وذلك بدءاً من العصر السابق لأقدم تاريخ معروف، أي من عصر ما قبل التاريخ حتى عصرنا هذا.

ويتراءى من مطالعة فصول هذا الكتاب، حرصُ المؤلف على توضيح بعض التجاوزات التي أصابت تاريخ بلاد الشام من قبل الأوربيين، وبصورة خاصة إطلاقهم اسم الحضارة الفينيقية على ما هو بالفعل حضارة كنعانية. وينطلق من هذا إلى التسميات الأخرى المتعارفة: العصر الحجري القديم والأوسط والحديث؛ فيرى إطلاق تسميات اصطلاحية جديدة عليها مستقاة من لغة عربية تراثية ما أمكن له ذلك.

فهو يرى أن العصر الحجري القديم هو عصر الحجر المظّر، إذ يأخذ هذا المصطلح عن التاج واللسان حيث الظّر والظّر والمظّرة هو (الحجر المحدّد، له حد كالسكين، يقطع به) ويضيف تسمية المرحلة التالية في العصر ذاته بأنها مرحلة الحجر المخمّش أي الأدق صنغاً، تأكيداً لفعلة القاطع. ثم يأتي العصر الحجري الأوسط، حين ظهرت علامات ذوق فني واعٍ في تصنيف القواطع من الأحجار، وهذا ما يسميه عصر الحجر المشدّب. وأما العصر الحجري الحديث، حين ظهرت علامات الصقل على الحجارة، فهو ما يسميه عصر الحجر المهذّب.

وهكذا يستمر المؤلف في استعراض مراحل التطور الحضاري إلى ما هو معروف بثورة العصر الحجري الحديث، حين ظهرت إنجازات حضارية هامة كاختراع العجلة وتصنيع الأواني الفخارية. فهو يطلق على هذه الثورة الحضارية مصطلح صَمَيان العصر الحجري الحديث (بدل ثورة).

كما أنه يطلق مصطلحاً جديداً على مجموع مراحل العصر الحجري فيسميها عصر الإسداف (عن التاج واللسان حيث السُدفة اختلاط الضوء والظلمة معاً).

إنه مجهود كبير مرتبط ببحث أصيل في المعاجم التراثية لإيجاد مصطلحات جديدة يمكن إطلاقها على توصيف مراحل الحضارة الإنسانية. وعدد ما يقترحه في الكتاب يربو على أربعين مصطلحًا. لذلك نراه عند استعراضه للمراحل التاريخية التي مرت بها بلاد الشام يطرح مصطلحات يريد أن يستعوض بها عن تلك الصادرة عن الثقافة الغربية. فهو يرى استبدال مصطلح الجيرة بلفظة إمبراطورية حيث يكون الجير هو الإمبراطور الذي يفرض سيطرته على الدولة، كما يعرض استخدام لفظة الاقتدار عوضًا عن الاستراتيجية وذلك خلال استعراضه للقوى التي سيطرت على بلاد الشام في الحقب التاريخية المتتالية ما بين دخول الإسكندر والفتح الإسلامي.

وفي سياق الكلام عن تحليل المجتمعات المتعاقبة في بلاد الشام، يقترح المؤلف إلقاء نظرة جديدة على التركيب الاجتماعي، من حيث القرابة والنسابة ليقول بوجود نوع أعم من الانتماء القبلي أو العشائري؛ ويطلق على ذلك لفظة عَسَابَة إذ إنهم عُسَب من نخلة واحدة (العسيب هو الجريدة من النخل مستقيمة عن التاج واللسان) ولهم كذلك قرابة من نوع آخر مع أقوام مجاورة في مصر القديمة، ومع البربر والشعوب الكوشية الإفريقية وهذه القرابة يسميها العزّارة.

والخلاصة أننا أمام كتاب يلقي نظرة فاحصة على التطورات التاريخية والحضارية في بلاد الشام، ليصل إلى نظرة ناقدة لبعض المسلمات التي أطلقها علماء الغرب، ويعيد إلى الأذهان مراحل ماجدة من ثقافة بلاد الشام حتى يصل إلى الفتح الإسلامي، مفصلاً نقاطاً هامة في نسيج العمران البشري الذي

انتهى إلى وجود « أداة التبادل المعرفي الأمثل بين البشر شاحصة في اللسان العربي الفصيح المتداول آنذاك» (ص ١١٤).

إنه كتاب موجه إلى جمهورنا المثقف الذي سوف يجد فيه مادة غزيرة من المعلومات عن التاريخ الحضاري لبلاد الشام، ويلحظ دأب المؤلف على العودة إلى تراثنا اللغوي لإيجاد مقابلات أصيلة لبعض المسميات والمصطلحات التي تقدم للقارئ العربي وكأنها قوالب جاهزة لا يجوز أن يعتريها التغيير. وأما المصطلحات المقترحة في هذا الكتاب فهي جديرة بالاهتمام، ولا بد من الانكباب على إعادة النظر في أصولها اللغوية ومدى انطباقها على احتياجات عالمنا المعاصر، وهي مطروحة على لجنة المصطلحات في المجمع، لبت في قبول ما يستساغ منها ويمكن إحلاله بديلاً عن مصطلحات دارجة لا تنفي بالعرض تماماً.